نقص أم ماذا ... ؟

للأستاذ إبرهيم عبد القادر المازنى

كان معى — وأنا مدرس فى مدرسة دار العلوم — أستاذ انجليزى كانت بينى وبينه صداقة وثيقة . وكنا نعلم الطلبة مبادئ اللغة الإنجليزية ، فأقبل على يوماً يقول : « لقد أخفقت وأحسب أن من واجبى الآن أن أقنع رؤسائى بنقلى إلى مدرسة أخرى ، فما فى بقائى هنا خير ، ولست أدرى كيف تصنع أنت ، ولكن الذى أدريه أنى أنا أخفقت »

فقلت له وأنا أمازحه : « أقعد ، أقعد ، وحدث (عمك) المــازنى بما تعانى وتكابد . ما هى الصعوبة اليوم ؟ »

قال : « سأخبرك . إن كل طالب يسألنى مثلاً عن الفعل « Sit » — يجلس — كيف انقلب فصار « Sat » — جلس — فلا أستطيع أن أجيب بكلام معقول مقبول يرتاح إليه العقل . هم يريدون سبباً ويطلبون تعليلاً ، وأنا لا أعرف إلا أن هاتين صيغتاه فى الحالتين . وقس على هذا »

قلت : « هل تطيعنى إذا أشرت عليك بأمر ؟ »

قال : « أتمزح ؟ »

قلت : « أمزح ... أجد ... سيان . المهم إنقاذك من الورطة . إسمع يا صاحبى . لقد كنت أظن أنك أفدت شيئاً مما تعلمته من قواعد اللغة العربية . وكنت أحسب أن ذهنك مرن ، وأن لك قدرة على الاقتباس والقياس . وكنت أتوهم أنك تستطيع أن تخاطب كل فريق من الناس بما يفهمون »

قال : « لست فاهماً »

قلت : « ألم يعلمك شيوخك فى اللغة العربية أن (قال) أصلها (قَوَلَ) وأن الواو فُتح ما قبلها فصارت ألفاً ؟ »

قال : « نعم »

قلت : « هل تستطيع أن تزعم أن هذا كلام معقول مقبول يستريح إليه العقل ؟ »

قال : « لا »

قلت : « ولكنك سلمت به بلاجدال ، وأخذته عن مشايخك بلا مناقشة أو تفكير ، وأجبت به فى الامتحان بلا تردد ، وأنت تزعم اليوم أنك تعرف العربية حق معرفتها ، وأنك أخذتها عن أهلها »

قال : « ولكن ما دخل هذا فى موضوعنا ؟ »

قلت : « كنت أحسبك ذكيًا ولبيباً ، فإن هذا هو حل المشكل . بهذه العقلية التى جعلتك تسلم بأن قال أصلها قَوَلَ ، فُتح ما قبلها فانقلبت ألفاً ، يجب أن تخاطب الطلبة . فاذهب وقل لهم إن « Sat » أصلها « Sit » وإن حرف العلة فتح ما قبله فانقلب « Sat » فسترى أن هذا يسرهم ويكفيهم ، وستجد أنك استرحت بعد ذلك من كل عناء » .

فصاح بى : « ولكن هذا غير معقول »

قلت : « إنه معقول كقولك إن قال أصلها قَوَلَ وأن الواو فُتح ما قبلها إلى آخر هذا الهراء . ولا تحتقر تلاميذك حين تراهم يصدقون أن « Sat » أصلها « Sit » وأن حرف العلة فُتح ما قبله إلى آخر هذا الهراء، أو حين يتوهمون أنهم فهموا. فلست خيراً منهم، وما أكثر ما يتوهم الإنسان أنه فاهم ، وهو غير فاهم شيئاً . إذهب وافعل ما أشير به وأخبرنى بالنتيجة ، وإن كنت أعرفها من الآن كلها . لن تقول لى بعد الآن إنك أخفقت ، وإنك ستطلب من الوزارة النقل إلى مدرسة أخرى »

وقد كان ، وسكنت الثورتان : ثورة الطلبة على المدرس ، وثورة المدرس على نفسه

وهذا استطراد بدأت به ، أما ما كان العزم أن أقوله فهو أن هذا الصديق المدرس سألنى يوماً وقد علم أنى رُزقت طفلاً : « حدثنى عنه . صف لى كيف تحبه ! »

قلت : « لا أعلم أنى أحبه »

قال : « لا تتكلف الفلسفة »

قلت : « الحقيقة أنى حائر ، لا أشعر بأية عاطفة ، ولا أحس أن لى به سروراً كذاك الذى أسمع وأقرأ أن الأدباء يحسونه ببنيهم؛ وإنى لمستغرب »

قال : « أتتكلم جاداً ؟ »

قلت : « إنى جاد جداً . وثق أنى حائر »

قال : « لعل العاطفة راقدة ، وعسى أن تكون محتاجة إلى ما يوقظها وينبهها »

١٣ ١٩

قلت : « عسى »

وانتقلنا إلى حديث آخر ، ومضت الأيام وماتت البنت — فقد كانت بنتاً — فلم أرثى حزنت أو جزعت ، ولم يكن هذا كافياً لتنبيه عاطفة الأبوة التى قال لى صاحبى أن أكبر ظنه أنها راقدة . ولى الآن من البنين ثلاثة ، وقد استطعت أن أوحى إلى نفسى حب بنتى التى ماتت ، وحب أخرى جاءت وذهبت مثلها ، وحب البنات على العموم دون البنين ، أو أكثر من البنين ، ولكنى أدرك أن هذا فعل الإيحاء لا فعل الطبيعة ، وأعرف من نفسى أنى لا أعرف لبنىّ مثل ما يعرف الآباء غيرى . نعم أشفق عليهم وأعنى بهم ، ولكنى لا أشعر لهم بتلك الرقة التى أسمع بها . ويخيل إلىّ أن العادة هى منشأ ما أحسه لهم ، وأنى أرحمهم لأنهم صغار ضعاف ، وأعنى بهم لأنى جئت بهم فأنا مسئول عنهم . وكثيراً ما أضجر وأمل ، وأسأل نفسى متى يكبرون ويستغنون عنى ، فأحط عن كاهلى عبئهم ، وأرتاح منهم ، وأعيش وحدى مستقلا عنهم ؛ وأرحل وأغيب ، فلا أحن إليهم إلا حنة المرء لعشيره وصديقه ، ولمألوفه

وكان لى أخ أسن منى ، وكنت أوقر سنه ، ولكنى لم أكن أشعر له باحترام أو حب ، كالذى يكون بين الأخوين عادة . ولم أبكه لما مات ، وإنما سخطت على ضعفه الذى قتله ، فقد كانت امرأته تركبه كالحمار ، وكان يشكو لى هذا ، فأضجر ، وأقول له : « ما الفائدة ؟ إنك ضعيف ، وهى تركبك ، ولا أمل فيك ولا خير فى الشكوى ، فاحتمل على قدر طاقتك ، فما خلقك الله لغير هذا » فيقول : « نعم . صدقت . يجب أن أحتمل » فأنهض من مجلسه مشمئزاً ، وإن كنت فيما عدا ذلك أستظرفه وأستخف ظله ، وأحب فكاهته ، ولكن ضعفه كان يهيج نفسى عليه ، وقد مرضت جدتنا فلم يعدها لأن امرأته أبت عليه ذلك ، فلما ماتت جاء ليمشى فى جنازتها ، فأبيت عليه ذلك وقلت له : « كان الأولى أن تعودها فى حياتها لتسرها على الأقل ولتعفيها من شعور الحسرة ، أما الآن فأولى بك أن تذهب إلى بيتك » ففعل

وانقطع ما بينى وبينه سنوات لم أشتق إليه فيها قط ، ثم التقينا اتفاقاً فتصالحنا فى صمت ثم نزعت يدى ، ومضيت لشأنى ومضى فى سبيله . وقد قصصت هذا لأصف شعورى الحقيق

فهل هذه بلادة ؟ أو هى نقص فى بعض جوانب النفس ؟ أم ذاك لأن عاطفتى الأدبية تستغرق نفسى كلها ؟ أم لأن حبى لأمى استنفد ذخيرة النفس من هذا الحب ؟ فقد كان حبى لأمى — وما زال — أقوى ما استولى على نفسى ، وكان هو العامل المؤثر فى سيرتى ، فكنت إذا هممت بأمر أسأل نفسى: «ماذا ترى يكون رأى أمى فى هذا ؟ » فإذا كان الجواب خيراً أقدمت ، وإلا صددت نفسى وكبحتها عن مرادها ، وصرفتها عما تحاول . أم ترى التعليل الصحيح أن البنين والإخوة والأقرباء على العموم نتيجة المصادفة ، ليس إلا ؟

لا أدرى . وأكبر الظن أن بى نقصاً ، فإنى فيما عدا حبى لأمى ، لم يغلبنى حب قط — لا حب امرأة ، ولا حب أحد من البنين أو الأقارب . ولست أرى الناس كذلك ، وليس من المعقول أن أزعم أن الناس غيرى شاذون ، وأنى أنا وحدى الطبيعى ، والأولى والأقرب إلى العقل أن آخذ بمنطق « قراقوش » فأصدق الناس ، وأرفض زعم الفرد .

ابراهيم عبد القادر المازنى

الفصـول والغايات

معجزة الشاعر الطائب

ابي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربى فى طريقته ، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قال فيه ناقدو أبى العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة وصدر منذ قليل

صححه وطبعه وشرحه الأستاذ

محمود حسن زناتى

ثمنه ثلاثون قرشا غير أجرة البريد
وهو مضبوط بالشكل الكامل ويقع فى نحو ٥٠٠ صفحة
ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة ويباع فى جميع المكاتب الشهيرة